مجلة إشكالات في اللغة والأدب
ص: 380 - 392
مجلد: 12 عدد: 2، يونيو 2023
E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

طمس الهوية في قصة 37 فبراير من المجموعة القصصية (اللعنة عليكم جميعا) للسعيد بوطاجين

The Smearing of Identity in the Story of February 37th, Excerpt From the Short Story " Allaana Alaikoum Jamiaan " by Saïd BOUTAGINE

موراد سركاستي [1]* / مولود بوزيد [2]
Mourad SERKASTI [1] / Mouloud BOUZID [2]
[1] مخبر تحليل الخطاب
[2] مخبر التمثلات الثقافية والفكرية
جامعة مولود معمري تيزي وزو (الجزائر)
University Mouloud MAMMERI Tizi ouzou (Algeria)
mourrayen052@gmail.com [1] / mimou.bzd@outlook.fr [2]

تاريخ الإرسال: 2022/08/03	تاريخ القبول: 2023/01/08	تاريخ النشر: 2023/06/02

ملخص البحث

موضوع بحثنا حول طمس الهوية في القصة الجزائرية والذي أردنا من خلاله إبراز تلك الآليات المنتهجة في سبيل الإقصاء والتهميش وطمس بعض الهويات..وقد تجلت هذه الآليات الممارسة سواء على المثقف أو غير المثقف بصورة واضحة في المجموعة القصصية "اللعنة عليكم جميعا" للسعيد بوطاجين .. فرغم تنوع موضوعات المجموعة القصصية إلا أن موضوع طمس الهوية تجلى أكثر في قصة 37فبراير موضوع بحثنا، والتي طرحت قضية إنسانية في غاية الدقة وهي علاقة الأنا بالآخر من خلال شخصية آدم. وهي علاقة صراع واستغلال بين الأنا الذي يريد استرجاع هويته من خلال تصحيح الخطأ الوارد عمدا في تاريخ ميلاده وهو خطأ يجرده من هويته ويجعله يعيش بهوية شخص آخر غير معروف، والآخر الذّي يسعى بكل الطرق لتغييب بعض الهويات..حيث استطاع بوطاجين أن ينقل لنا هذا الصراع بأسلوب ساخر ولغة واضحة.

الكلمات المفتاح : الهوية؛ السّلطة؛ التّهميش؛ المثقف؛ الاستغلال.

Abstract :

The subject of our research came around the smearing of identity in the Algerian narrative, through which we wanted to highlight these mechanisms adopted for the purpose of exclusion and marginalization and the smearing of certain identities. These mechanisms of practice, whether on the educated or the uneducated, were clearly manifested in the story collection "Allaana Alaikoum Jamiaa" by Said BOUTAJINE.. Despite the diversity of the topics of the story collection, the issue of identity smearing was more evident in the story of February 37, the subject of the research.. It raised a very precise human question, which is the relation of the self to the other through Adam's personality. It is a relationship of conflict and exploitation between the ego who wants to recover his identity through a mistake in the

* موراد سركاستي : mourrayen052@gmail.com

date of birth and the other who seeks by all means to obscure some identities.. Where BOUTAJINE succeeded to convey this conflict to us in a sarcastic manner and in clear language.

Keywords: Identity, Authority, Marginalisation, Intellectuel, Exploitation.

1 - مقدمة:

شغلت الهوية حيزا كبيرا في الكتابات الأدبية، حيث تُعد من المسائل الأكثر تناولاً من قبل الأدباء الجزائريين، في مختلف إبداعاتهم من قصة، رواية، مسرحية وشعر، إذ شكلت بؤرة اهتمامهم ومدار تفكيرهم، وذلك ما يعكس رغبتهم في الكشف عن المضمر ومأساة العيش، فجاءت هذه الكتابات كمحاولة لمعالجة مسألة الهوية التّي تعكس مجموع تساؤلات الفرد الجزائري من حيث هو فرد ينتمي إلى أرض ولغة ودين وتاريخ وثقافة، يحمل اسما يتميز به عن غيره، له حقوقه كما عليه مجموعة من الواجبات، وهذه العناصر لها أهمية في تشكيل ملامح هوية فرد ما أو جماعة ما.

يعتبر "السعيد بوطاجين" واحدًا من الأدباء الذّين تناولوا موضوع الهوية في كتاباتهم بطرق مختلفة، حيث اعتمد أسلوب السّخرية في طرحه العديد من القضايا التّي تخص المجتمع الذّي تحكمه سلطة فاسدة، لهذا جاء موضوع بحثنا تحت عنوان "طمس الهوية في قصة 37فبراير" من المجموعة القصصية "اللعنة عليكم جميعا"، حيث تطرح هذه القصة الإشكالية التالية:

- ما هي آليات طمس الهوية عند بوطاجين من خلال قصة 37فبراير ؟

وتندرج ضمن هذه الإشكالية مجموعة من الأسئلة الفرعية متمثلة في:

- ما مفهوم الهوية؟
- كيف يساهم الآخر(السلطة) في طمس هوية الأنا(الفرد)؟
- ما هي نظرة الأنا(الفرد) إلى الآخر(السلطة) باعتباره القوة المسيطرة؟
- وما هي مكانة فئات المجتمع المختلفة في ظل السلطة المستبدة؟

2 - مفهوم الهوية:

إنّ محاولة وضع تعريف محدد للهوية هو ضرب من الخيال، إذ لا يمكن وضعه في إطار محدد نظرًا للانتشار الواسع لهذا المصطلح على ضفاف وفروع عرفية متعددة فليس من ثمة تعريف ناجز ونهائي من الثّقافة والهوية نستطيع استعارته باطمئنان وتأسيس الكلام على معطياته. والهوية من المفاهيم التّي حفل بها التّراث

الاجتماعي، فقد عرفها ميلر Evan Miler بأنها «نمط الصفات الممكن ملاحظتها أو استنتاجها والتي تُظهر الشّخص وتُعرفه وتُحدده لنفسه وللآخرين»[1] حيث يشعر بوجوده المختلف عن غيره، وهذا الاختلاف هو الّذي يعرفه بنفسه وهو يتحرك ضمن ثقافته الكلية وثقافته الفرعية.

فالهوية إذن هي الماهية، وتتمظهر هوية الشّخص في مظهرين اثنين أساسيين، «أولها اسم هذا الشّخص الّذي يميزه عن غيره من الناس، وثانيها ذلك الشّيء غير الملموس والأكثر تعقيدًا وعمقًا والّذي يشكل في الحقيقة ماهية المرء والّذي لا نملك كلمة دقيقة نصفه».[2]

إذا وظفنا ما أشرنا إليه فيما يخص هوية الإنسان التّي تعنينا فإننا نخلص إلى القول: إنّها تلك المعلومات المسجلة في بطاقة الهوية أو بطاقة التعريف والتّي تشمل الاسم واللقب وتاريخ الميلاد ومكانه، والنّسب العائلي (أي اسم الأب والأم) وعنوان الإقامة بالإضافة إلى العلامات الجسمية المميزة كالطول ولون الشعر ولون العينين.

يمثل تاريخ الميلاد إحدى المقومات المشكلة لهوية الفرد والتي تميزه عن باقي الأفراد في المجتمع، و"السعيد بوطاجين" واحد من المهتمين بالهوية من خلال أعماله الكثيرة التّي رفض من خلالها كل أشكال الهيمنة والقمع والاستغلال والفساد، فمن خلال قصة 37 فبراير حاول الكاتب أن يسلط الضّوء على فئة مهمشة مغيبة في المجتمع من خلال شخصية ابن آدم والمعلم. حيث يصور لنا كل أشكال الهيمنة التّي تمارسها السلطة من أجل طمس هوية الفرد وتغييب دوره داخل المجتمع.

3-الهوية خارج التاريخ:

يعيش الوطن العربي بصفة عامة والمجتمع الجزائري بصفة خاصة كل أشكال الاستغلال والهيمنة من طرف الحكام والرؤساء الّذين يلعبون بمصائر الأفراد والمجتمعات، وبالتّالي يبقى الحفاظ على الهوية والاستعانة بالتاريخ طوق نجاة من السّلطة القمعية التّي تعمل على غرس حقائق أخرى مزيفة. حيث تحاول دائما قوى عتية أن تلعب بالذاكرة والزمن من خلال عبثها بحقائق التّاريخ، وتغرس بذلك حقائق أخرى مشوهة وزائفة تتماشى مع مصالحهم الشّخصية.

والهوية هي نتاج لحركية هذا التاريخ في المجتمع، تتغير وتتبدل حسب الوعي الجمعي له (التاريخ)، إذ عاشت الجزائر منذ القدم تعاقب حضارات النوميديين والرومان انتهاء بالاحتلال الفرنسي، وحاولت هذه الحضارات بكل الوسائل أن تترك بصمتها في هوية الشّعب الجزائري، وذلك إما بمحوها أو طمسها، إلاّ أنّ الوعي الوطني لدى الشّعب جعلهم يضحون بالنّفس والنّفيس من أجل حرية البلد وكرامته، حبًا للوطن والاعتزاز به، وبالتّالي كتبوا هويتهم بدماء الشّهداء الأبرار، غير أنّ تقلد الحكام لغير مراتبهم بعد الاستقلال أوقع البلد في الفساد والخراب وتشويه التاريخ وضياع الهويات.

حيث أستعملت فيها السّلطة المغتصبة آليات تحريف الحقيقة وتشويه التّاريخ لإضفاء الشّرعية على علاقات الهيمنة القائمة، فمن خلال عنوان قصة 37 فبراير يظهر لنا هذا الزّيف والتّشويه والتّلاعب بالتاريخ

الذّي يشكل هوية الفرد والمجتمع والذّي يلعب دورًا فريدًا في تقوية الإحساس بالهوية ،إذ أنّ 37 فبراير لا يمثل أيام السنة المعهودة، فهو تاريخ لا أساس له في أشهر السّنة، لكن الكاتب عمد إلى ذلك عن طريق أسلوب السّخرية في عرض الأحداث، للتركيز على أبسط خطأ يمكن أن يعري زيف السّلطة الحاكمة وتلاعباتها، ويفضح بذلك كل أشكال الفساد والاستغلال الذّي تمارسه على الفرد والمجتمع، حيث تعمد إلى كسر الهوية بوصف ذلك إجراءً سلطويًا، ثم تقوم بتأميمها وتوظيفها في خدمة هوية السّلطة، الهوية التي ترغبها هي.

فبعد العنوان نجد قولا للشيخ عبد الرحمن المجذوب:

تخلطت ولا بات تصفى
ولعب خزها فوق ماها
رياس على غير مرتبة
هما سباب خلاها

والذّي يعكس تماما ما هو موجود في متن القصة، ويُقصَد من خلاله بأنّ البلاد فسدت واعتلى الباطل الحق، وذلك بسبب تقلُّد الرؤساء والحكّام أماكن وكراسي الحكم بغير مرتبة، وهذا المعنى تماما ما أورده "السعيد بوطاجين" في مضمون قصته التّي تروي الضياع والفساد الذّي خلفه مسؤولوا كل القطاعات، والذّين لا يعرفون شيئًا عن مصلحة البلاد والعباد، فقط تهمهم مصالحهم ومناصبهم، وذلك انطلاقًا من ابن آدم الذّي يمثل أبسط الفئات الاجتماعية والذّي يعيش تحت خطأ في أوراقه الثبوتية جعله يقع في الاستغلال من طرف السّلطة ، والذّي يفاجأ برسالة تدعوه إلى مملكة الله غالب من أجل تصحيح خطأ ميلاده، أين يكتشف بعد ذلك أن تصحيح الخطأ ما هو إلا لغرض سياسي وهو الانتخابات.

4- تهميش وتهشيم المثقف:

يعيش المثقف حالة من التهميش في أغلب البلدان العربية، نظرا للقيود التي تفرض عليه سواء على مستوى الإبداع أو على مستوى الواقع، وبالتالي أصبحت مهمته متذبذبة ولم يعد يقوم بالدّور المنوط به، باعتباره ناقدًا اجتماعيا على حد تعبير "عابد الجابري" في قوله : «إنّه الشّخص الذّي همه الوحيد أن يحدد ويحلل ويعمل من خلال ذلك على المساهمة في تجاوز العوائق التّي تقف أمام بلوغ نظام اجتماعي أفضل، نظام أكثر إنسانية وأكثر عقلانية».[3]

فالمثقف هو فرد يتمتع بموهبة خاصة تمكنه من أداء رسالة ما، والدّفاع عن قضايا مختلفة والوقوف مع الحق مهما كانت العراقيل التّي يواجهها إلا أنّ السّلطة تقف ضد ذلك وتحاول بكل الوسائل والآليات فرض هيمنتها وسيطرتها، فالسلطة «هي القوة ضد الذين لا سلاح لهم »[4] فحسب "غرامشي" هي نظام يقوم على الإكراه والإقناع، ترتكز عليه الطبقة الحاكمة من أجل السّيطرة والهيمنة لتعزيز حضورها والمحافظة على مصالحها المختلفة.

عمد الكاتب في هذه القصة إلى تصوير حالة المثقفين في البلاد وذلك من خلال المعلم الّذي آثر الانزواء والبقاء بعيدًا عن كل أشكال الصّدام مع السّلطة، فهو على دراية بكل ما يحدث في مجتمعه إلا أنّه ظل صامتًا وعاجزًا على إعطاء الحلول، فهو رغم صمته ظل يُكنّ كرهًا شديدًا لمملكة الله غالب وهي أصغر وحدة إدارية ترمز إلى السلطة، وهي مملكة أقامت مجدها على محاربة نور العقول، والقضاء على كل أشكال المعارضة، وذلك بغرس أنيابها في أعماق المجتمع الجزائري، فالمعلم فضل الانعزال على أن «يتصالح مع السّلطة ويتكيف مع الواقع ويتأقلم مع النّظام ويتحول إلى بوق سياسي ومحام يدافع عن النّظام السّياسي الحاكم ويحمل إيديولوجية السّلطة القائمة على شؤون البلاد، ويوصلها بعد ذلك في خطاب ديماغوجي إلى الجماهير الشعبية دفاعا عنها وتبريرا لها قصد أن يعطي لها المشروعية والصلاحية ويغطي بغربالة الفكري والسفسطائي أخطاء وهفوات الطبقة الحاكمة».[5]

وتحت هيمنة السّلطة ظل المثقفون في سبات عميق، ومارست عليهم بذلك كل أنواع الاضطهاد في حقهم ومن بين الآليات التي انتهجتها في ذلك نجد:

أ-الحظر النخبوي:

استطاع المعلم أن يقرأ في السّلطة عطب الوجود، فاختار أن يعيش بعيدا عن كل أشكال المعارضة خوفا من سياسة القمع والتّرهيب التّي تمارسها السّلطة ضد المثقفين، فغالبًا ما يكون رد فعل أصحاب السّلطة اتجاه هذا المثقف العضوي هو استعمال الضّغوطات المعنوية والمادية، وبالتالي تسعى إلى حظر الطبقة المثقفة لأنّها من تنقل انشغالات المجتمع وأزماته، وتحاول إيجاد الحلول لها.

فنتيجة آلية الحظر المنتهجة في حق المثقف، يتخذ المعلم ركنًا بعيدًا عن كل أشكال الصّدام مع السّلطة، يقاوم في صمت هذه السّياسة التّي عاثت في البلاد فسادًا، ويظهر ذلك من خلال قول الكاتب بطريقة ساخرة : «ظل المعلم على عهده يتأمل هذه الكائنات العجيبة محاولا عبثا أن يصنفها في فصيلة حيوانية ما، ومع الوقت تملكه اليأس وما وصل إلى نتيجة، لعله وصل وترك الأمر سرا فانسجم مع الذات وتناغم لرأب الصدع المتجذّر في الأبعاد السحيقة للعرش».[6]إذ ما يزال الكثير من حكامنا يعتقد أن كل ما يفعله هو حق يجب أن يسود حتى ولو كان جرائم شائنة، بينما يعتقد في الوقت نفسه أنّ كل مناوئ له هو باطل يجب أن يدحر ويزهق بكل وسيلة.

عملت السلطة على إقصاء الكائن الفرد الواقعي -بعمقه التّاريخي ومقومات وجوده الاجتماعي وانتمائه الوطني من خلال محاربة العقل والروح كما يظهر في قول الكاتب في وصف المعلم: « تملكه العياء وازداد فقرا وكراهية لمملكة الله غالب التي أقامت مجدها على محاربة العقل والروح»[7] فالمعلم واحد من بين الّذين مارست عليهم السّلطة سياسة الإقصاء فحاربتهم بتغييب دورهم وإضعاف صوتهم وبالتالي تهميشهم وكسر هويتهم كمثقفين.

ب- آلية الإسكات:

من بين الآليات التي مارستها السلطة على المثقفين، سياسة الإسكات، حيث عمدت إلى ذلك من أجل الحفاظ على مكانتها ومصالحها الشّخصية، وبالتّالي فرضت سيطرتها وهيمنتها على كل أشكال المعارضة، وفي ظل هذه السّيطرة والهيمنة، لجأ الكاتب إلى تصوير حالة المعلم الّذي يعيش تمزقا وحسرة فيقول: «لحظة صمت كافية للحج إلى الغياب، كان المعلم يساير نفسه عابثا بما يرى ويسمع، آلاف الإداريين والوزراء لكتابة فقرة من الأخطاء» [8] لتظهر شخصية المعلم المثقف المهمش، والّذي طمست هويته كواحد من بين هؤلاء الّذين يمكنهم المساهمة في التّغيير، فبينما استغل الجهلاء مناصب الحكم، همش دور المعلم ووقف عاجزًا أمام الوضع الكارثي الّذي آلت إليه البلاد، حيث لا يقدر على التّغيير بسبب اعتلاء الخونة والجهلة للمناصب الإدارية، « فالمثقف توبع من طرف السّلطة السّياسية ليس أبدا بدلالة الخطاب العام الّذي يتلفظ به، بل بسبب المعرفة التّي هو مالكها، وهذا ما يجعله في هذا المستوى يشكل خطرا سياسيا»[9]، فالمعلم الّذي كان يعرف كل شيء قامت السّلطة بإسكات صوته وذلك بتغييب دوره في المجتمع وهي واحدة من بين الأساليب التي تنتهجها للحفاظ على سيطرتها وهيمنتها.

ج- آلية الردع والقمع:

إنّ الدّولة تنتهج سياسة الردع والقمع كآلية أخرى من أجل فرض سيطرتها التّامة، وإقصاء كل صوت يعارضها، حيث يقول الكاتب: «كل خطوة باتجاه المملكة خطأ عظيم» [10]وهو دليل على خرص السّلطة على ردع وقمع كل محاولة للوصول إلى كرسي الحكم، وبالتالي محاولة السيطرة على كل أشكال المعارضة، وكل رأي يخالف رأيها أو كل خروج عن الدّائرة التّي سطرتها مصيره التهميش والنفي أو السجن والقتل.

يواصل الكاتب في وصف المعلم توصيفا دقيقا فيقول: «كان المعلم قد جاور الخمسين، اكتسب ابتسامة غريبة» [11]فالابتسامة التي اكتسبها ما هي إلّا رمزًا للمعاناة نتيجة الأوضاع التّي يعيشها، فالمعلم كان على دراية بكل خبايا السّلطة وبكل أشكال اللامبالاة والاستغلال التّي تمارسها على الشعب، ولكن مانعًا ما كان يمنعه من أن يثور في وجه هذا النّظام الغاشم المستبد، وهذا ما يظهر من خلال قول الكاتب: « بدا المعلم حزينا وهو يحدث الباش قاعد المتراكم على كرسيه منذ أصحاب الفيل، كان يود أن يقذف في وجهه المستتير لعنة طولها سبعة وسبعون ذراعا، غير أنّه لاحظ أنّ الرّجل لا يستحق ذلك لأنه أسوأ من كل الصفات البذيئة» [12]فالسّلطة تمارس كل أنواع القمع والردع والهيمنة على الشّعب بمختلف فئاته، وبالتّالي لا يمكن إعلاء أية كلمة غير كلمة السّلطة الفاسدة، ومن يتطاول لسانه على ذلك يكون مصيره النفي والتهميش أو القتل وهو الشّيء الّذي لم يصرح به الكاتب .

فالمعلم باعتباره مثقفا كان رافضا لهذه السلطة، لكنه لم يكن شجاعًا وقادرًا على قول الحقيقة لها وتبقى هذه الصورة كما يقول "ادوارد سعيد" «جذابة ومقنعة وأن كانت غير واقعية وصعبة الحصول» [13]، لأن المثقف لا يمكنه أن يكون شجاعًا في ظل الاستبداد والقمع وسياسة الترهيب والتخويف التي تمارسها عليه السلطة.

تبدو شخصية المعلم شخصية مهمشة ونفسية مستسلمة، عاجزة على مواجهة تلك الأنظمة الفاسدة انطلاقا من البلدية، رغم ثقافته الواسعة، ولهذا نجد أن مشكلة المثقف حسب "باندا "«هي خيانته والتّي تعني التّنازل عن السّلطة الأخلاقية لمصلحة ما، وعدم التّضحية من أجل القيم العليا، والرضوخ للواقع الفاسد»[14] والاستسلام له، وهذه الخيانة كانت نتيجة العراقيل التي يتعرض إليها من قبل السلطة التي تعمل جاهدة على تهميش المثقفين وتغييب دورهم في المجتمع.

فلا مناص إذا من أنّ المثقفين الّذين حملوا بذور النّقاء واصطدموا بواقع كل ما فيه مزيف فعجزوا عن تغييره، وتحولوا إلى مثقفين معزولين ومهمشين غير معترف بهم، وبالتالي يغيب دورهم في المجتمع كمثقفين قادرين على التغيير والإصلاح .

قرر المعلم أن يزيل السّتار عن صمته بعد معاناة طويلة نتيجة للسياسية القمعية التي مارستها السلطة عليه، فراح يكشف لابن آدم خبايا الحكم والحكام، فيصور له البشوات بكل أصنافهم إذ نجده يقول: «هل تعرف الباش هراوة ؟ أنا أعرفه جيدا وأعرف من أية طينة نتنة جبل، الناس لا يستحون من أنفسهم وهذا ما يتعبني، الباش هراوة كبقية البقية، يأكل الغلة ويسب الملة لا خير فيه ولا أمل»[15]فهم مجرد لصوص استغلوا مناصب الحكم خدمة لمصالحهم الشخصية يقول الكاتب: «37 فبراير كافية لمعرفة أول جزئية بنيت عليها مملكة الله غالب، التي أدمنت غرس النصب التذكارية للأغبياء واللصوص»[16]، فالجهاز النّظامي الّذي يحكم البلاد هو جهاز مبني أساسًا على الباطل، مصنوع من الزّيف والخداع، فبينما همش أصحاب الحق والحقيقة، اعتلى اللصوص والخونة مراتب الحكم. حيث أنّ أي رئيس يعتلي كرسي الحكم يوهم النّاس بالعمل على القضاء على الفساد مع بداية حكمه، ثم ما يلبث يطويه ملف النسيان بعدما يمتلئ بطنه، فكلهم سواسية عند المعلم ولا فرق بينهم، هي أغنية قديمة يرددها الواحد منهم تلو الآخر دون نتيجة تذكر من أجل تصفية حسابات بين الجماعات السياسية .

فبعد صمت طويل وجد المعلم أمامه فرصة لفضح هذا الاستغلال للمناصب وأساليب الخداع والمكر التي كان تمارسها السّلطة، وذلك بعد أن استنجد به ابن آدم من أجل تصحيح ورقة بسيطة تدخل في تشكيل هويته الفردية، متمثلة في أوراقه الثبوتية، ولجوء المعلم إلى هذا التصوير وتعرية مفاسد السلطة ما هو إلا تعبير عن رفضه لكل أشكال القمع والهيمنة.

5-الاستغلال الإيديولوجي للفئات الاجتماعية:

اختار الكاتب تسليط الضوء على فئة اجتماعية أخرى مهمشة ومنسية في المجتمع ممثلة في ابن آدم، وهي فئة لم يعترف بها من طرف السلطة أو أنها تناستها عمدًا، مما عمق الهوة بينها وبين هذه الفئة المنسية في المجتمع، والتّي أصبحت تستغل في جميع الميادين، وهذا ما زاد من توغل السلطة في الفساد دون أية معارضة، وبالتالي فرض هيمنتها وممارسة سياسة التغييب عليهم، فالسلطة لا تخشى من هذه الفئة عن مصالحها بقدر ما تخشى ذلك المثقف الواعي الرافض لكل أشكال الاستغلال والفساد.

تمثل صورة ابن آدم أو السعيد بن مسعود، تلك الشخصية البسيطة العفوية الصادقة، لكنها تعتبر ضحية الاستغلال والاستبداد من طرف مملكة الله غالب، حيث يتمثل هذا الاستغلال في الآليات التي تنتهجها في حقه، من مغالطة وتهميش وترهيب، واستغلال.

أ)- الحرمان والاستغلال :

كان ابن آدم يعيش عيشة بسيطة بعيدًا عن كل الصّراعات السّياسية، يتلقى رسالة من مملكة الله غالب تدعوه للحضور إلى البلدية من أجل تصحيح خطأ في أوراقه الثبوتية، وهذا ما يقوي صورته في القصة من البداية إلى النهاية، باعتباره جاهلا، فلو لم يكن كذلك ليكتشف أن هناك خطأ في أوراقه الثبوتية، وبقي يعيش بذلك الخطأ إلى أن استدعته البلدية.

ينتمي ابن آدم إلى فئة المظلومين وفقراء المدن والفلاحين المهمشين في الريف، وهي أكثر الفئات المستغلة من طرف الدولة، حيث أعطى السعيد بوطاجين ملخصا كافيا عن ابن آدم وعائلته، ومكانته ضمن هذا المجتمع الذّي أفسدته طبقة من السّياسة الفاسدة التي مارست كل أشكال الحرمان والاستغلال عليه فيقول: «لقد تذكر أنّه لم يدخل المدرسة ولم يقرأ كتابا أو نشيدا، عكس المعلم الذّي هرب شعره من فرط العزلة والجرائد والكتب الغريبة التّي كان يأتي بها من جهات بعيدة، ولو قرأ لعرف ما به هذا ال 37 فبراير»،[17] حيث اعتمد الكاتب في هذا التوصيف على تقنية الاستذكار والاسترجاع ليعود بنا إلى زمن الصبا الذّي لم يعشه ابن آدم كغيره من بني جيله، حيث حرم من أدنى وسائل التعليم، وأصبح اليوم جاهلا لا يعرف الكتابة والقراءة، وهو ما تحول سلبا على حياته التي يعيشها، حيث أنه يعيش تحت اسم شخص مات إثر طلقة أصابته في الرأس، كما أنه يعيش تحت خطأ في تاريخ ميلاده، وهذا ما يجعله دون هوية ودون دور محدد في المجتمع الذي أفسدته الأنظمة الحاكمة، يقول الكاتب: «السعيد بن مسعود المدعو ابن آدم، المولود بتاريخ 37 فبراير توفي عقب عملية بطولية شنها الأبطال على الأعداء، قاوم بشجاعة وسقط برصاصة أصابته في الرأس»[18].

رغم جهل ابن آدم إلا أنه إنسان بسيط صادق وعفوي «إن مخلصا كهذا لن يوجد حتى في الآخرة»[19]، فالكاتب يتهكم من الوضع السائد في البلاد من خلال مملكة الله غالب، إذ يرى أنّ الإنسان الصالح منعدم، وأنّ ابن آدم من بين هؤلاء الأشخاص المميزين النادرين والذّين لفرط طيبتهم تعرضوا لكل أشكال الاستغلال والحرمان، وبالتّالي طمست هويته كفرد ينتمي إلى المجتمع له حقوقه كما عليه واجباته.

عاش ابن آدم معزولا عن أدنى وسائل العيش البسيطة، بل أكثر من ذلك راح ضحية المصالح الشخصية، حيث يشير الكاتب إلى ذلك بطريقة ساخرة، إذ اعتمد السخرية كوسيلة لانتقاد السلطة فيقول: «وقالوا امض هنا أنا لا أعرف أمض هنا، خربش، ألحّو علي وأعطوني قلما، حملته مقلوبا وفي أسفل الورقة رسمت دجاجة ودودة، ومن وقتها تعلمت الإمضاء الذي أصبح مفخرة بنيت عليها مستقبلي...أقول لك سيدي، الملك رائع، لأول مرة أشعر بأني مهم ، أنا المنسي في غابة أعطي رأيي في ذهابه أو بقائه، ولما نويت أن أرسم

دجاجة ثانية قال لي أصغرهم بأن واحدة تكفي ..ستبيض لاحقا ، وفعلا لم يكذب ، جاؤوني في الثانية بأوراق خضر فوجدت دودة بالألوان ولما سألت عن الدجاجة سكتوا هم أدرى...أكلتها الدودة همس المعلم في أذنه»،[20] إن انعدام الانتماء والشعور بالضياع في متاهات الغالب الأقوى يجعل الإنسان يشعر في بعض الأحيان بالنقص أمام الأخر فينصاع لأوامره.

لم تكن لابن آدم أية مكانة في المجتمع كونه جاهلا ، فعاش منسيا في غابة في الريف «أنا المنسي في الغابة»[21] رغم ذلك لم يسلم من الاستغلال، فحرم من حقوقه بسبب طمع الحكام والمسؤولين الذّين انقادوا وراء ملذات الدنيا، وألصقوا على وجوههم الغدر والخيانة، فالحوار الذّي جرى بين ابن آدم والمعلم والمسؤولين نقل لنا مشهدًا حيًا عن استغلال الحكام للفئات الاجتماعية بمختلف مستوياتها، لغايات تخدم مصالحهم وهذه المصالح لا يمكن بلوغها إلا بالعودة إلى أبسط فرد في المجتمع، فاللجوء إلى ابن آدم من أجل تصحيح خطأ في أوراقه الثبوتية كان لغاية الانتخاب فقط، والكاتب أراد الإشارة إلى أن الفرد في المجتمع مهما كان مستواه لا يمكن إهماله أو تجاهله مهما حاولت السلطات فان إليه راجعون.

ب)-الإقصاء:

يعيش ابن آدم وعائلته معزولا عن المجتمع ومحروما من أدنى وسائل العيش رغم أصول أجداده في هذه الأرض الطيبة، وهذا ما يظهر من خلال المقطع التالي: «بألم فكر المعلم في عائلة ابن آدم التي قذفت في مقبرة منسية وسط الغابة، وتركت عرضة لنفاق السياسيين، كان يتألم لمنظره الذي ظل يوحي له بانحراف التاريخ عن مجراه، عائلته حاربت العدو بشجاعة، قال في حسرة»[22] وهو وصف دقيق لابن آدم وعائلته، وأغلب العائلات الجزائرية التي تعيش الفقر المدقع والتي تعاني من ويل التهميش من طرف مجموعة من اللصوص شوهوا التاريخ وصنعوا تاريخا آخر يتماشى مع مصالحهم، فعائلة ابن آدم عائلة لها تاريخ مشرف، حاربت الاستعمار الفرنسي، لكنها في النهاية لم تحظ بمكانتها التي يجب أن تكون عليها في المجتمع، وبالتالي رميت إلى الغياب في ظل انعدام مبدأ العدالة والديمقراطية.

ج)-المغالطة:

تعتبر المغالطة واحدة من بين الآليات التي اتخذتها السلطة في فرض سيطرتها وهيمنتها ، ويظهر ذلك في تلاعبات الباشوات بابن آدم المسكين، فنجد ذلك في المقاطع التالية: «صرح الباش قاعد بأن المسألة معقدة، وبأنه قادر على إيجاد حل مؤقت. يحذف يوما أو يومين في سرية تامة، 36 أو 35 فبراير أمر معقول إلى غاية إيجاد منفذ آخر»[23] وهي سياسة السلطة في تجهيل الشّعب وتغليطه. « وأنت لماذا تريد أن تحذف يومين؟ الناس يصعدون وأنت تنزل، الزيادة أفضل من النقصان يا رجل، الله غالب، المسألة خطيرة»[24] وهو نوع آخر من المغالطة، حيث يريد الباش هراوة أن يجعله يصدق بأن تاريخ ميلاده تاريخا عاديا مثل التواريخ الأخرى.

ليبقى ابن آدم يمثل الشّخص المنسي المستغل، الّذي لا هوية محددة له، يعيش منذ الولادة على خطأ في تاريخ ميلاده وهو خطأ لا وجود له في أشهر السنة، مما جعله يصدق به حين أرجع ذلك إلى القضاء والقدر،«ما به ال 37 فبراير ، أليس يوما من أيام الله»،[25]إذ يمثل السؤال عن تاريخ الميلاد بالضرورة سؤالا عن الهوية، فابن آدم لم يكن- لفرط جهله- يعلم أنّ هذا يدخل في تشكيل هويته وانتمائه، ولم يكن يعلم أن الدولة كانت وراء تهشيم وطمس هويته، وتفكيك شخصيته والتّي أضحت سمة بارزة تنتهجها الدولة في ذلك «من تفكيك تاريخها وذاكرتها وعواطفها»[26]وهو مآل الهوية اليوم من تهديم وتفكيك جراء تيارات فكرية جعلت «الذات الإنسانية تفقد كل وجود فعلي»[27] وهذا ما يظهر من خلال المقطع التالي« السعيد بن مسعود المدعو ابن آدم، المولود بتاريخ 37 فبراير توفي عقب عملية بطولية شنها الأبطال على الأعداء، قاوم بشجاعة وسقط برصاصة أصابته في الرأس»،[28]فابن آدم سجل في البلدية على أنه ميت منذ زمن، ولم يكن يعلم ذلك، لكنه بعد سماع ذلك توهم واندهش إلا أنّه تقبل ذلك إن كان ذلك يخدم الملك كما قال.

د)-الترهيب و التخويف:

إن سياسة الترهيب هي واحدة من الآليات التي تتخذها السلطة للهيمنة والسيطرة ، يظهر ذلك من خلال المقطع التالي:«امشي من قدامي»[29] وهو يوجه الكلام لابن آدم الذي يريد أن يفهم حسب الكاتب، وهذه العبارة الخشنة والقاسية تدل على سيطرة الحكام على كل شيء، ناسين أن تلك الدولة التي هم عليها هي قائمة بفضل الشعب، «فالفرد بمجرد أن يمارس سلطة على الآخرين فإنه يشعر بسمو ذاته وأن إرادته تعلو إرادة الخاضعين»[30] ، ويطلق على هذه الحالة التي تنتاب الفرد حين يتولى السلطة باصطلاح" الأنا الحكومية" فممارسة السلطة تخلق لدى الحكام شعورا بالسمو الذي يولد لديه إحساسا بأنه مختلف عن أمثاله من أفراد الشعب وأنه يتمتع بإرادة من طبيعة سامية[31]، مما يجعل من السلطة قوة قمعية لمختلف الفئات الاجتماعية، وبالتالي تفرض سيطرتها وهيمنتها عن طريق التخويف والترهيب ومختلف الآليات الأخرى، إذ يقول الكاتب : «كل خطوة باتجاه المملكة خطأ عظيم».[32]

فهيمنتها لم تترك أمام الفرد حرية التعبير، وهو انتهاك فادح لمعنى الوطنية في ظل المواطنة ودولة المؤسسة والقانون، وغياب الحقوق والحريات المدنية والسياسية، هو غياب للهوية الفردية والمجتمعية والوطنية، فالسلطة بطبيعتها القمعية ونزعتها الشمولية ترى الفرد مجرد رقم في سجلاتها الإدارية، هذا ما نجده في المقطع التالي: «انزعج الباش قاعد من إجابته التي بدت خرقاء..كاد يصاب بالسعار لولا تدخل الباش واقف لطرد هذا الذي يحب أن يفهم»[33] ، فالسلطة لا تؤمن بمن يخالفها الرأي، بل تعمل على ترهيب معارضيها ، وتعمل على تشكيلهم وفق الشكل الذي تريده، وكل من يخالفها يعتبر سلطة مضادة،فلا يمكن إذن الحديث عن الهوية إلا بالذهاب إلى الدولة ومبدأ المواطنة وسيادة القانون والاعتراف المبدئي والنهائي بأحقية المواطن، الكائن الواقعي بما هو فاعل سياسي واجتماعي، في أن ينتج شروط وجوده الذاتية والموضوعية في الحياة.

هـ)-القضاء على الأماكن الأثرية:

تشكل المعالم الأثرية التاريخ للأمة، ويمثل تهديمها وتخريبها تشويه للتاريخ وبالتّالي تشويه للهوية، فالمجتمع يحاول دائما الحفاظ على ماضيه من خلال هذه المعالم الأثرية، فإذا ضاع ضاعت الهويات.

تسعى السلطة دائما إلى فرض هيمنتها، من أجل تحقيق مصالحها الشّخصية، وبالتّالي تعمل على القضاء على مختلف الأماكن الأثرية واستبدالها بمستودعات كما يقول الكاتب لإخفاء فضائحها، وهي بهذا العمل تسعى إلى طمس الهوية وتغييبها واستبدالها بهويات أخرى تتماشى ومصالحهم الشخصية «كان هذا المكان صديقا، هناك حديقة وكان شجر، كان النوار وحديث التربة، ثم جاء البشوات والدايات والمفلسفون والرعاع والبدو فملئوا البصر اسمنتا وإسفلتا، وها أنت ترى لم يبق هنا مكان تستحم فيه العيون، خربوها وبنوا مستودعات لإخفاء الفضائح»[34].

إن هذه الآليات التي تنتهجها السلطة الحاكمة في حق الشعب المدني، هي آليات قمعية بالدرجة الأولى، إذ تسعى إلى إسكات مختلف المعارضات، وتهدف إلى تغييب آراء النخبة المثقفة، وطمس الهويات الفردية، فنتيجة سياسة التخويف والترهيب عاش المعلم معزولا بعيد كل البعد عن كل أشكال الصّدام مع السّلطة، وعاش ابن آدم عبدا ضعيفا، أميّا، تحت خطأ في تاريخ ميلاده، دون أن يتذمر من أجل ذلك، بل بقي وفيا للحاكم يمجده ويبجله.

5 - خاتمة :

إنّ السّلطة من خلال القصة تستعمل آليات القمع والهيمنة من أجل الحفاظ على مكانتها ومصالحها الشخصية ، وبالتّالي تقوم بتغييب دور المثقف الذي يلعب دورا بارزا في المجتمع، باعتباره عنصرًا واعيًا يحمل رسالة إصلاح والدّفاع عن الحق والثورة على كل أشكال الفساد والاستغلال والاستبداد.

لذلك عمدت السّلطة إلى تهميش وإضعاف صوت هذه الفئة المثقفة مما جعلهم يشعرون بالنبذ وعدم الانتماء وفقدان هوياتهم كمثقفين واعيين.

اعتمد الكاتب على أسلوب السخرية الذي يصور من خلاله الرفض القاطع لسياسة الفساد المهيمنة على البلاد.

فالكاتب هو أديب وإنسان واعي رفض السكوت والظلم بكل أنواعه، لذلك لجأ إلى السّخرية كوسيلة للتعبير عن قضايا حساسة تمسّ مجتمعه، فسخر من المجتمع ومن الواقع ومن المسئولين ورفض الذل والتهميش.

إنّ تسليط الضّوء على أضعف فئة في المجتمع من خلال ابن آدم ما هو إلا تصوير لحالة البلاد والحكام فيها، فابن آدم عاش محمشا مغيبا في شوارع الفقر المدقع، فاقدا لأبسط وسائل العيش، فرغم الخطأ الذي يحمله ابن آدم في أوراقه الثبوتية إلاّ أنّه عاش خادمًا وممجدًا للحاكم، وهذا ناتج عن كل أشكال التّرهيب التّي تمارسها السّلطة في المجتمع، ونتيجة هذا التّرهيب والتّهشيم وتغييب دور الفئات المختلفة في المجتمع، ضاعت الهويات بما في ذلك هوية المثقف الّذي آثر الصمت والسّكوت من خلال الشيخ أو المعلم، وهوية الفئات الأخرى والتي يمثلها ابن آدم من خلال جهله وتقبله لأمر الواقع والعيش ميتا أو بخطأ في أوراقه الثبوتية.

هوامش:

[1] - محمد عبد الرؤوف عطية: التعليم وأزمة الثقافة العربية، (2009)، مؤسسة طيبة للنشر (القاهرة) ط1، ص25،

[2] - المرجع نفسه، ص17، 18.

[3] - محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية، (2009)، مركز دراسات الوحدة العربية، (المغرب) ط1، ص15

[4] - محمد الشيخ، المثقف والسلطة(دراسة في الفكر الفلسفي المعاصر)، (2009)، دار الطليعة للطباعة والنشر، (لبنان)، ط1، ص122

[5] - جميل حمداوي،جدلية المثقف والسلطة، www.m.ahewar.org يوم 1-09-2019

[6] - السعيد بوطاجين، اللعنة عليكم، (2001) رابطة كتاب الاختلاف، (الجزائر)، ط1، 62

[7] - المصدر نفسه، ص 56

[8] - المصدر نفسه، ص 57

[9] - ميشال فوكو، الحقيقة والسلطة، ضمن كتاب نظام الخطاب، تر: محمد سيبلا، (1984) دار التنوير، (بيروت)، ط1، ص67

[10] - السعيد بوطاجين: اللعنة عليكم جميعا، ص 57

[11] - المصدر نفسه، ص 61

[12] - المصدر نفسه، ص 59

[13] - ادوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة: محمد عناني، (2006)، رؤية للنشر والتوزيع، (القاهرة)، ص38.

[14] - المرجع نفسه، ص 35

[15] - السعيد بوطاجين، اللعنة عليكم جميعا، ص 63

[16] - المصدر نفسه، ص 59 ص58.

[17] - المصدر نفسه، ص 56

[18] - المصدر نفسه، ص 58

[19] - المصدر نفسه، ص 58

[20] - المصدر نفسه، ص 60

[21] - المصدر نفسه، ص 60

[22] - المصدر نفسه، ص ص 57

[23] - المصدر نفسه، ص ص60

[24] - المصدر نفسه، ص 61

[25] - المصدر نفسه، ص 57

[26] - مجموعة من المؤلفين، الرواية المغاربية، أسئلة الحداثة، (1998) مخبر السرديات، دار الثقافة، (الدار البيضاء)، ط1، ص226

[27] - عزيز نعمان، الهوية المنسجمة والهوية المتشظية في نص سيمورغ لمحمد ديب، (2009)، مجلة الخطاب، جامعة مولود معمري تيزي وزو، العدد4، ص197

[28] - السعيد بوطاجين: اللعنة عليكم جميعا، ص 58

[29] - المصدر نفسه، ص 55

[30] - ميشال فوكو، المعرفة والسلطة، تر: عبد العزيز العيادي، (1994) المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،(بيروت)، ص47

[31] - السعيد بوطاجين: اللعنة عليكم جميعا، ص 47

[32] - المصدر نفسه، ص 47.

[33] - المصدر نفسه، ص 55

[34] - المصدر نفسه، ص 62.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ادوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة: محمد عناني، (2006)، رؤية للنشر والتوزيع، (القاهرة).
2. جميل حمداوي، جدلية المثقف والسلطة، www.m.ahewar.org يوم 1-09-2019
3. جون جوزيف، اللغة والهوية،قومية- اثنيه - دينية، تر:د .عبد النور خرافي، مجلة عالم المعرفة، ع 342، أوت 2008.
4. السعيد بوطاجين، اللعنة عليكم، (2001) رابطة كتاب الاختلاف، (الجزائر)، ط1.
5. عزيز نعمان، الهوية المنسجمة والهوية المتشظية في نص سيمورغ لمحمد ديب، (2009)، مجلة الخطاب، جامعة مولود معمري تيزي وزو، العدد4.
6. مجموعة من المؤلفين، الرواية المغاربية، أسئلة الحداثة، (1998) مخبر السرديات، دار الثقافة، (الدار البيضاء)، ط1.
7. محمد الشيخ، المثقف والسلطة(دراسة في الفكر الفلسفي المعاصر)، (2009)، دار الطليعة للطباعة والنشر، (لبنان)، ط1.
8. محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية، (2009)، مركز دراسات الوحدة العربية، (المغرب) ط1.
9. محمد عبد الرؤوف عطية: التعليم وأزمة الثقافة العربية، (2009)، مؤسسة طيبة للنشر (القاهرة) ط1،
10. ميشال فوكو، الحقيقة والسلطة، ضمن كتاب نظام الخطاب، تر: محمد سيبلا، (1984) دار التنوير، (بيروت)، ط1.
11. ميشال فوكو، المعرفة والسلطة، تر: عبد العزيز العيادي، (1994) المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، (بيروت).